الثقافة العسكرية

وأناشيد الجيش

للأستاذ عبد اللطيف النشار

نشيد الأحزاب

من وضع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر
الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا
وسبحان الله بكرة وأصيلا
الحمد لله وحده صدق وعده
ونصر عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
الله أكبر . الله أكبر . ولله الحمد

* * *

من من المسلمين لا يحفظ هذا النشيد ؟

كلنا نحفظه ، ولكن أكثرنا يرتلونه قعوداً بعد صلاة عيد الأضحى . ولا يزال فى الريف من يرتلونه فى موكب عند عودتهم من المسجد إلى القرية . أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان يرتله فى وسط كوكبة من الجند ، ووراء الكوكبة جيش جرار على صدر كل منهم درعه ، وعلى رأسه اللأمة ، وفى يده السيف المسلول

كانوا رضوان الله عليهم أجمعين يمشون مشية المحارب ويرتلون هذا النشيد الرصين الهادئ القوى على نغمات المسير . فهو إن أردنا تسميته بالمصطلح العصرى « مارش الإسلام » هو النشيد الذى أعد لمسير الجيوش التى فتحت فارس ومصر بعد عقدين من الهجرة النبوية الشريفة

الحمد لله وحده صدق وعده
ونصر عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده

هذا الكلام البليغ ليس بالشعر ، ولكنه قابل للتلحين . وقد حفظنا لحنه وأنشدناه ولا نزال ننشده فى كل عام . وكل الفارق بيننا وبين الأولين أنهم كانوا يرددونه وفى أيديهم السيوف ونحن نرتله وفى أيدينا المسابح ، وأنهم كانوا يرددونه وهم يمشون إلى القتال ونحن نقوله ونحن سائرون إلى الديار لشرب صرق الأضاحى التى أمرنا بذبحها للفقراء فذبحناها لنأكلها نحن هنيئاً مريئاً ، وأنهم كانوا يرتلونه وتنبض قلوبهم بشرر حى لأنهم يفهمون لكلمة « وهزم الأحزاب وحده » معنى غير الذى نفهمه نحن . . . هم يفهمون أن الأحزاب هم فلان وفلان الذين رأوهم فى يوم كذا من شهر كذا يذبحون فلاناً وفلاناً من أقاربهم وقد هزمهم الله بأن مات منهم فلان وفلان وأسر منهم فلان وفلان وأسلم منهم فلان وفلان

« وهزم الأحزاب وحده » كلمة بليغة نقولها نحن ، ونغمة شجية نطرب لها نحن ، ولكنها غير مشفوعة فى خيالنا بالصورة الواضحة التى يترسمها القائل المجاهد ، وغير مشفوعة فى مشاعرنا بذكريات الأرحام الممزقة ، والمودات التى استحالت إلى عداوة ، والعداوات التى استحالت إلى أخوة

ألفاظ نقولها ونغمة نعيها ونفهم معانى كل كلمة فيها ونعى النغمة أيضاً ، ولكننا بعد ذلك لا نفهمها الفهم الكامل لأنها لا تستثير فى نفوسنا ذكريات حية واشجة بحياتنا الشخصية ولا تمرض على خيالنا صوراً رأينا مثلها بالحس :

صدق وعده ونصر جنده
وهزم الأحزاب وحده

نفهم كل حرف من هذا ولكننا لم نر النبي كما رأوه وهو يرتعد ويقول : اللهم وعدك الذى وعدتنى . ولم نسمع أبا بكر يجيبه كما سمعوه حين أجابه وهو يقول : إن الله منجزك ما وعدك . فالألفاظ واحدة ولكنها أدت لدى الكثرة منا معانى فحسب ، وأدت لدى من قالوها لأول مرة معانى وصوراً وانفعالات . بل لو شئنا لقلنا إنها أطلقت من غددهم إفرازات اختلطت بدمائهم فكونت فى عروقهم لوناً آخر من ذلك السائل الكيميائى غير الذى يجرى فى عروقنا نحن

هذا النشيد إذن بتأثيره فى سامعيه نشيد غير الذى ننشده نحن وإن لم تختلف ألفاظه ، وما قيمة الألفاظ التى لا تنقل نفس الأثر ؟

ولكن أحقاً أنها لا تنقل نفس الأثر ؟

أحسب القول ذا إجابات تتراوح بين الإقرار وبين الإنكار ، فإن الخيال والدرس والإيمان كل ذلك خلال تستبق الأثر لكل

لفظ قيل إذا تشابهت ظروف القول . وهذا النشيد ككل قول آخر ينطبق عليه قول أبي الطيب :

ولكن تدرك الأفهام منه على قدر القرائح والعقول

ولقد كان الذين دفعهم إيمانهم إلى دراسة السيرة النبوية دراسة تربط الفهم بالوجدان — كان هؤلاء يتأثرون بهذا النشيد حين يسمعونه كما تأثر به أوائل من سمعوه إذا اتفقت لهم مثل الظروف التي قيل فيها . فطارق بن زياد في فتح الأندلس قال في وسط الجند :

الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده

قال لهم ذلك والسيوف في أيديهم ينقل إليهم مثل الإحساس الذي عالجه المهاجرون والأنصار وهم على أبواب المدينة في العام الثاني للهجرة والنبي واقف يقول إن المشركين قد اقتربوا من المدينة يريدون غزو المسلمين ، وإنه يريد أن يخاطر بعض المسلمين بحياتهم فيذهبوا إلى حيث معسكر الكفار ليعرفوا مواقعهم ويبرزوا قوتهم ثم يأتوه بالأخبار

سأل النبي أيهم يقدم على هذه المخاطرة ، فتقدم منه الزبير يعلن استعداده لها

ولكن النبي أعاد السؤال فكان الزبير هو الذي أجاب ، وأعاد النبي السؤال للمرة الثالثة فكان الزبير هو الذي أجاب . فقال عليه الصلاة والسلام إن لكل نبي حواريه وإن حواريّه هو الزبير

أجميلة هذه الصورة ؟

جميلة بلا ريب . لكن أجمل منها ذلك الشعور النبيل الذي جاش بنفس النبي وجاش بنفس كل جندي من جنوده ، هو الشعور بأن الأحزاب إن هزمت فإن الذي سيهزمها هو الله وحده ، ومن الذي يستطيع أن يهزم الأحزاب غير الله ؟

إن أحداً لم يعد النبي بالنصر غير الله . فالله سيهزم الأحزاب لأنه سبحانه وعد بذلك . والأحزاب عدد كبير ، ولكن الله أكبر

كذلك تدفقت من فم النبي هذه الأنشودة التي ظل يرتلها في كل غزوة والمسلمون يرتلونها معه :

الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر
الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيراً
وسبحان الله بكرة وأصيلا
الحمد لله وحده صدق وعده
ونصر عبده وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده
الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . ولله الحمد

وبعد فهذا أول «مارش» في الإسلام ، ولم يكن بالشعر ولكن صاحب الرسالة التي تحدث الشعر بالفواصل الكريمة : فواصل القرآن قد تحدث الأناشيد العسكرية بهذا النثر الموسيقي الذي فتحت به فارس وفتحت به مصر وفتحت به الشام وفتحت به أفريقيا وفتحت به الهند وفتحت به الأندلس وفتحت به بلاد البلقان وفتحت به بلاد النمسا الجنوبية وبولونيا . ثم ماذا ؟ كان يفتح به سائر العالم لو فهم المسلمون فهماً مشفوعاً بالشعور العميق معنى !

الحمد لله (وحده) ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده !

ولكن هل في هذا النشيد الهادئ القوي الرصين ما في أناشيدنا من الألفاظ الجوفاء كالنار والغداء والدماء ؟

لا . لأن الجيش المحارب لا يستطيع الانتصار إلا إذا شعر بأنه من أجل الحياة يدافع ، ومن أجل الرفاهية يهاجم ، وأنه في سبيل الخير يتحرك ، وأن الغرائز التي تستحثه هي الغرائز السامية لا شهوة الدم والنار .

عبد اللطيف النشار